# النقد الأدبي بين الفن والعلم

د. جهاد المجالي
قسم اللغة العربية
كلية الاداب
جامعة مؤته

## ملخص

يعرض هذا البحث لموضوع الامر من حيث كونه علماً او فناً . ولقد توصل إلى ان النقد الأدبي عمل إبداعي كاي نوع من أنواع الفنون الأخرى وإن اشترك مع العلم في بعض السمات ، فهو فن قائم بذاته ولا يحرمه ارتباطه بالفنون الأخرى من ان يكون عملا إبداعياً . والأهم من ذلك ان النقد الأدبي يستند إلى ملكة الذوق ، فالشاعر او الأديب يخلق ليتذوق ، أما الناقد فيتذوق ليخلق . وهذه الملكة الفطرية ( الذوق ) لايمكن ان تتحقق بالأكتساب من خلال الدراسة والممارسة ، والاهتداء بالمعايير والقواعد الموضوعة ، مما يجعل الناقد ولادة ، أي انه يولد كما يولد اي فنان .

## Abstract

This paper investigates the nature of literary criticism,whether it is a science or an art.The researcher concluded that literary criticism is an art and a creative process, though it carries some scientific trait. The most significant reason for regarding literary criticism as an art is its reliance on thecritic's faculty that cannot learned or acquired.

## تقديم

شغل موضوع النقد الأدبي من حيث كونه علماً او فناً لكثيرين من النقـاد، فمنهم من كان ينظر إلى النقد الأدبي على أنه علم كبقية العلوم له منهجـه وتجاربه وادواته، ومنهم من ذهب إلى انه موضوع ذاتي يستند الى ملكة الذوق في المقام الأول وماتبعثه النصوص في نفس الناقد من انفعالات ، ومنهم مـن كان يراوح بين العلم والفن في نظرته لهذا الموضوع .

ويجب ان نقرر منذ البداية ان الفصل في هذه القضية ليس بالأمر اليسيـر بسبب تشابك الخيوط واختلاط الحدود ما بين النقد الأدبي والعلم من جهة ، وما بين النقد الأدبي والفن من جهة اخرى . وعلى الرغم من صعوبة الفصـل في هذا الموضوع إلا أننا نستطيع القول بأن النقد الأدبي عمل إبداعي كـأي نوع من انواع الفنون الأخرى ، وإن كانت النظرة العاجلة تدفع الى الظن بـأن سمات العلم هي الغالبة عليه ، ونحن لاننكر ان بعض سمات النقد هي أقرب إلى العلم منها إلى الفن ، فالنقد يعتمد على قواعد ومعايير ، وهو يستند إلـى التسلسل المنطقي ، ويقوم الى حد كبير على الوعي ، لأن هدفه توضيح الأثارة الفنية ولفت الوعي إلى مواطن الجمال في الاثر الفني ولكن على الرغم من هـذه السمات التي تقرب النقد من دائرة البحث العلمي فإن فيه من السمات مايقربه من الأنتاج الابداعي ، ولايعني اشتراكه مع العلم في بعض السمات ان ننفيه من دائرة الإبداع الفني ، فحتى الفنون على اختلاف أنواعها فيها من سمـات العلم الكثير ، ومع ذلك فإنها لاتستبعد من دائرة الفن ، فالشعر على سبيل المثال هو خلقٌ فني ، اساسه القدرة المتميزة في التعبير عن خلجات النفس ونقل الإحساس بها إلى الآخرين . والإبداع في النقد هو القدرة القائمة على تقديـر هذا الخلق الفني ، سواء أكان هذا التقدير مستنداً الى منهج ذاتي قوامه التذوق أم اعتمد معايير موضوعية تبني عليها أحكام محددة تؤدي الى مثل ذلك التقدير ،

فالادب يستند إلى ملكة الخلق بينما يستند النقد إلى ملكة الذوق. وبعبارة اخرى فإن الشاعر او الأديب يخلق ليتذوق، اما الناقد فيتذوق ليخلق . فطريق النقد الحقيقي هو طريق الابداع ولكن مع الأختلاف في نقطة الأنطلاق ، فبينما يكون الفراغ من القصيدة عند الشاعر هو نقطة النهاية ، فإنه عند الناقد نقطة البداية (١) . وللفصل في هذه القضية كان لابد من اتباع منهج يعتمد الإجابة عن الأسئلة الثلاثة التالية :

هل النقد الأدبي فن قائم بذاته أم أنه تابع يعيش على هامش الادب ؟

هل النقد الأدبي طبع موهبة أم اكتساب ؟

هل يخضع النقد الأدبي لموضوعية العلم وقواعده الثابتة ام أنه فن ذاتي يعتمد على الإحساس والتأثر قبل التحليل والتفكير ؟

**استقلالية النقد الأدبي**

إن النقد الأدبي فن قائم بذاته وإن كان هنالك من ينظر إليه على انه تابع يعيش على هامش الأدب ولايستطيع الأستقلال عن الفنون التي يتعامل معها كما اشار إلى ذلك إليوت T.S.Eliot (٢) . وقد ذهب وردزورث W. Wordsworth إلى ابعد من ذلك حينما عد النقد ملكة من ملكات العقل أقل شأناً من ملكة الأبداع والابتكار ، وتمنى على النقاد ان يصرفوا اوقاتهم فيما هو اجدى عليهم من النقد (٣). ونحن إذ نستغرب صدور مثل هذا الرأي عن أناس لايفتقرون إلى الفطنة والتمرس في مجال النقد لنتذكر ذلك النفور القديم الجديد بين النقاد والشعراء . وتبرم الشعراء بالوصاية التي يدعيها النقاد عليهم (٤) .

وللرد على مثل تلك الدعوى التي تجرد النقد من اهميته ، وتنظر إليه على أنه تابع يعيش على هامش الفنون الأخرى نقول إن ارتباط النقد بالفنون الأخرى لايحرمه ابداً ان يكون عملا ابداعياً مثل الشعر والموسيقى وسائر

انواع الفنون الأخرى . وهذا الأرتباط لايفترق عن ارتباط الفنون بموادها ، كارتباط الشعر باللغة ،والرسم بالأصباغ ، وهذا لايسلب هذه الفنون استقلالها ولايطمس شخصيتها . واوضح دليل على استقلالية النقد في العصر الحديث عن الفنون التي تشكل مادته أنه يضطر في كثير من الأحيان إلى الخروج من إسار هذه الفنون الى افاق الفنون والعلوم الأخرى مثل علم اللغة والمنطق،وعلم النفس ، وعلوم الانثروبولوجيا . والعلوم الرياضية والطبيعية ليتخذ منها وسائل تعينه ، على النفاذ إلى صميم العمل الفني وتحليل المادة الفنية واستيعاب طرق تشكيلها (٥) ونحن نقر مع من يقول ان النقد يقوم على الأعمال الفنية . وانه لو لم تكن هذه الأعمال لما كان النقد ، ولكننا لانتفق مع من يقول ان النقد عبث لا طائل منه ولا غناء فيه ، اللهم إلا إذا كان المقصود ذلك النقد السطحي الذي يتناوله غير الأكفاء ، اما النقد الحقيقي فهو من حق الناقد كما ان الكتابة من حق الكاتب ، ونتساءل : ما حال الفنون فيما لو يكن النقد ؟ إن نظرة متفحصة للأمر تقود الى الأستنتاج بأن الفنون تتكيء على النقد تماماً كما يتكيء النقد على هذه الفنون ، فالمبدعون يستمدون عزمهم من الجمهور الذي يبدعون فنونهم من اجله ، وبالتحديد من النقاد الذين يوجهونهم ويزنون اعمالهم الفنية ،فاو لم يقبل عليهم الجمهور ، ولو لم يجدوا من بينه من يصغي إليهم ويتعهدهم بالتوجيه والتشجيع لما واصلوا طريقهم ،ولما كان لأصواتهم صدى ، وصدى أصوات المبدعين هو الجمهور ، والنقاد بالتحديد ، وصدى الفنون بالتالي هو النقد ، ولعل حال المبدع مع الناقد كحال صاحب المصنع الذي إذا لم يجد من يقبل على مايصنع اضطر الى اغلاق مصنعه ، وكما يقول طه حسين ، والمهم ان الأديب مهما يكن امره كائن اجتماعي لايستطيع ان ينفرد ولا ان يستقل بحياته الأدبية ولايستقيم له امر إلا اذا اشتدت الصلة بينه وبين الناس فكان صدى لحياتهم و كانوا صدى لانتاجه (٦) .

والنقد في كثير من الأحيان يرسم للأدباء طريقهم ، ويمدهم بموضوعاتهم فإذا كان الأديب يرسم صورة للحياة بما يملك من ضوء على زواياها المعتمة ، فإن الناقد مكمل لهذه الصورة بأكتشافه لأبعادها وتوضيحه لجوانبها وتوجيهه لمنشئها ، وكثيراً ما نجد بعض الأدباء يتحولون عن منهجهم الفني بسبب توجيه النقاد لهم (٧) .

وأبعد من ذلك فالناقد هو العين التي نرى من خلالها ما لاتصل إليه ابصارنا ، وهو كثيراً مايجسد بتعبيره أحاسيسنا التي نحاول التعبير عنها دون جدوى فهو كمن يكتشف ارضاً بكراً لم تطئها قبله قدم ، او كما يقول سكوت جيمس Scott James فإنه كالمراقب الأول الذي يسير على سكة الحديد المنجزة لفحصها ، فيختبر دقة صنعها ومدى تحملها إلى غير ذلك ، قبل ان يزدحم السير عليها فينكشف عيبها (٨) ، ولهذا فلا عجب ان لازم النقد الأدب منذ طفولته ، فمنذ قيل اول عمل ادبي وجد النقد ، وربما ظهر اول ناقد بعد أول شاعر .

وهكذا فإن النقد ضرورة ملحة للأدب في كل وقت ، وكل منهما مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاخر ، ولو اعترضنا غياب النقد عن الساحة الأدبية في اي مجتمع لما استطعنا تصور حالة التخبط والضياع التي سوف يعاني منها ، ولان الادب أكثر اتصالا بجوانب حياة الإنسان وتأثيراً فيها كان احوج الى النقد ، ومن انطباعات النقاد وملاحظاتهم على الادباء يمكن التعرف على الأنسان اكثر مما يتيحه الادب نفسه ، لان النقاد قد يدركون مالايدركه الأديب ، فتكون اراؤهم اكثر دقة واقرب الى الصواب لان الحياة الأجتماعية لامة من الامم تعرف من اراء النقاد اكثر مما تعرف من الأدب نفسه (٩) .

**النقد الأدبي وذاتية الفن**

إن الاصل في النقد الادبي هو التجربة الشخصية مع النص الادبي وما

يحدثه من أثر في نفس الناقد ، وهكذا فإن ذوق الناقد هو العامل الشخصي الذي يكشف عن قيمة النص ، فالناقد لايعطي النص قيمته ، وإنما مهمته في الكشف عن هذه القيمة وتقديرها واستخراج قيم جديدة . وبهذا فهو كالفنان في توتر متصل للابداع ، وكما يقول ميخائيل نعيمة إذا كان الفنان او الشاعر مبدع الاثر الفني . فإن الناقد مبدع قيمة هذا الاثر . تماماً مثل الصائغ الذي لم يخلق الذهب والماس ولكنه خلقهما لكل من لايعرف قيمتهما ، فلولاه لما عرفنا الذهب من النحاس او الزجاج من الماس (١٠) .

ولايدرك قيمة الاثر الفني إلا من امتلك الحس المرهف والقريحة المتوقدة التي تمكنه من الغوص على أعماق النص واستشفاف ابعاده وقيمه ، فهو إنسان يختلف عن غيره من حيث الدرجة لا النوع ، إذ يمتلك قدراً من الحساسية الحية اكثر من غيره . ودراية اشمل بطبيعة الخلق الفني ، وروحاً اقدر على النفاذ إلى جوهر الأشياء فالناقد المتميز هو الذي يجعل من النقد شكلا من الحس خاصاً به . فيكون مبدعاً عندما يسبق الى الكشف عن روح جديدة في النص لم يصل إليها ناقد قبله ، ولاحتى مبدع النص نفسه (١١) ، وقد يغيب عن اذهان كثير من الناس ان الناقد قد يصل في القصيدة إلى اكثر مما أودعه مبدعها فيها ، فعجز الناقد عن قرض الشعر لا يحول بينه وبين إدراك ما في كنهه من خبايا النفس ومكنوناتها ، وإلا فإنه لايكون ناقداً متميزاً ، وهو إن استطاع ذلك فإنه يمر بمرحلة المخاض التي مر بها الشاعر ، فيتمثل الحالة النفسية التي عانى لواعجها ، وعندها يستطيع النفاذ إلى روح الشاعر ، فيصبح كأنه الشاعر — مبدع القصيدة — فكما ان الشاعر يعد مبدعاً لأن روحه تستطيع اختراق حدود العالم المحسوس فتنفذ إلى ماوراء العالم المادي الظاهر فإن الناقد كذلك مبدع لأن روحه تتمكن من النفاذ خلف روح الشاعر فترصدها في حركاتها وسكناتها (١٢) ولايمكن ان يتاح له ذلك إلا اذا عرف الحياة معرفة لا تقل عن معرفة الفنان ، وامتلك بعضاً من إحساساته تجاه ذلك الجانب

من الحياة الذي يمثله ، وعندها فقط يستطيع الولوج إلى عالم الفنان (١٣) ، ويساوي نعيمة بين روح الخلق الأدبي وروح النقد الأدبي ، مبيناً انه لاقيمة مطلقاً للتفريق بين المبدعين والناقدين إلا إذا كانوا من ناقدي الدرجة الثانية .

يقول :وفي اعتقادي ان الروح التي تتمكن من اللحاق بروح كبيرة في كل نزعاتها وتجوالها ، فتسلك مسالكها وتستوحي موحياتها ، وتصعد وتهبط صعودها وهبوطها هي روح كبيرة مثلها (١٤) فالنقاد الذين اكتشفوا شكسبير وغيره من اصحاب العبقريات الخالدة لم يكونوا اقل منهم ، إذ لولاهم لما عرفنا شكسبير ولااستوقفتنا عبقريته (١٥).

صحيح ان الفنان هو القائد الذي يختار موضوعه من الحياة ويشخصه بطريقته التي يراها ، ولكن قد يخالفه الناقد الرأي فيحاول أخذ القيادة منه : لان الناقد الحق ، الذي يتسع الوجود البشري لنظرته المدققة مثلما اتسع للفنان قد يعلن رفضه قائلا : لا ، فلتبدأ من حيث تبدأ ولكن الحياة يجب ان تكون هكذا أو كذاك وليس كما اردت ان تعرضها« وعندها يتحول الناقد الى فنان مبدع عندما يختطف القلم من يد الفنان ليريه ماعليه ان يكتب .

وهكذا فإن عمل الناقد قريب جداً من عمل الكاتب المبدع،وإذا كان النقد علماً بمعنى معين فهو كما يقول سينت بيف Sainte Beuve فن يتطلب فناناً ذكياً —« والشعر لايقترب منه إلاشاعر— » وذلك لأن عملية إعادة البناء التي يقوم بها الناقد تحمله فوق الأرض التي سار عليها الفنان بالأصل ، غير أنها ليست الأرض نفسها تماماً . ونحن إذ نتحدث هنا عن الناقد إنما نعني الناقد الفنان ، لأنه قد يكون الناقد شارحاً لغوياً او شارحاً ادبياً ، وقد يكون مؤرخاً يعالج أثر المجتمع في الفنون ،او تأثير الفنون في تغيير المجتمع ، او قد يكون غير ذلك ، ولكنه إذا اراد ان يكون فناناً، كما نريد له ، فعليه الا يبتعد عن وجهة نظر الفنان هذه ابداً (١٦) .

وهكذا فإن الناقد ولادة ، يولد كما يولد الشاعر او اي فنان ، فهو ينطلق مبدعاً ويحيا كذلك ، ولذلك فإنه لايمكن ان ينظر إليه خارج دائرة الإبداع . ومن هنا فإننا نجد قلة من الناس يستطيعون ان يكونوا نقاداً حقيقيين (١٧) ، لأن الناقد الحقيقي هو الذي يتجاوز حدود التفسير والشرح ، وبيان المآخذ والمحاسن ، والتقيد بالقواعد المفروضة إلى استخراج القيم الجديدة (١٨) .

والنقد لايمكن ان يكون هو والعلم سواء بسواء ، إذ لابد من تدخل العنصر الشخصي فيه ، سواء أكان هذا النقد ذاتياً ام موضوعياً ، فكل ما في الأمر ان درجات الموضوعية والذاتية تتباين من ناقد لاخر . فاختفاء العنصر الشخصي اختفاءً تاماً أمرغير مرغوب فيه وغير ممكن ما دام إنكار الحقيقة لايلغي وجودها إذ ان هذا العنصر الشخصي الذي نحاول التغاضي عن دوره سرعان مايتسلل إلى اعمالنا ويعمل غير خاضع لقاعدة : لأن الأنطباعية اساس عمل الناقد (١٩) . فالعنصر الشخصي هذا هو الذي يعطي لكل ناقد سماته الخاصة وشخصيته المستقلة ، وإلا فإنه لو اختفى هذا العنصر لما كانت هناك فروق ملحوظة بين ناقد وآخر ، ولما استقل كل ناقد بشخصيته الخاصة . فخطر اختفاء الجانب الشخصي من الذوق على النقد وعلى شخصية الناقد لايقل بحال من الأحوال عن بقاء هذا الذوق في مجاله المحدود الخاص ، فالمهم ان يستند الذوق الخاص إلى الفكر المشترك فيهذب بالثقافة ويشذب بالممارسة ليصبح ما يصدر عنه من اراء اكثر قبولا وفهما . فينتقل بذلك من مجاله المحدود الخاص إلى المجال الواسع العام (٢٠) .

**النقد وثقافة الناقد**

ولمن ينظر إلى النقد على انه اقرب الى العلم بسبب اعتماده على الثقافة والفكر والجهدنقول إن الفن ايضاً جهد وفكر وثقافة تسند الملكة الفطرية لدى الفنان ، ولولا هذا الجانب الواعي في العمل الفني لما استثيرت الموهبة الفنية . ولما استطاع الفنان ان يكون مبدعاً ، ولعل في قول الأصمعي دليلا على

مايتطلبه الشعر من ثقافة وخبره لايصير الشاعر من غيرها شاعرا يقول لايصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي اشعار العرب ، ويسمع الاخبار ، و يعرف المعاني ، وأول ذلك ان يعلم العروض ، ليكون ميزاناً له على قوله : والنحو ليصلح به لسانه وليقيم به إعرابه ،والنسب وايام الناس ،ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرهم بمدح أو ذم » (٢١) ولعل في مدرسة المنقحين للشعر والمحككين له مثل زهير « صاحب الحوليات ، والنابغة وطفيل الغنوي ، والحطيئة ، والنمر بن تولب وغيرهم خير مثال على مايتطلبه الشعر من فكر وجهد وعرق ، إذ كانت القصيدة تمكث حولا كريتاً عند زهير قبل ان يذيعها بين الناس وهو يهذب فيها ويصلح من شأنها حتى اطلق الاصمعي عليه وعلى النابغة لقب « عبيد الشعر» (٢٢) .

وهكذا فإن الشعر يعتمد على الفكر والثقافة والخبرة ، ولكنها مجتمعة لاتعني شيئاً من غير الموهبة او الطبع الذي هو الأصل ، فالموهبة في الشعر تبقى قاصرة من غير ان تستند الى العناصر الاخرى التي تصقلها وتهذبها .

والنقد لايقل عن الشعر بحال في اعتماده على المعرفة . يقول سهل بن هارون : وليس يعرف حقائق مقادير المعاني : ومحصول حدود لطائف الامور ، إلا عالم حكيم ، ومعتدل الأخلاط عليم «(٢٣) فالنقد من حيث هو علم — إن جاز التعبير — لابد وان يعين النقاد على تقدير الادب بما يثريهم به من معارف وعلوم ، وبما يكسبهم من خبرة ودراية . فالناقد يتعلم اصول مهنته كما يتعلم كل إنسان أصول مهنته من خلال المدارسة والممارسة الطويلة وبما يبذل من جهد دائب ، وكلما اتسعت ثقافة الناقد أو الاديب أتسع امامه مجال البيان والقدرة على التصوير » فمن أوتى طبعاً دراكاً مبيناً وضاقت معارفه فهو ضيق المجال لايرتقي عن العامة واشباه العامة » (٢٤) .

ولكن الناقد الحقيقي لايمكن ان يبرز من خلال القراءة وحدها ، فالقراءة والمتابعة قد تخلق دارساً ، ولكن أنى لها ان تخلق ناقداً : لان الناقد ولادة كما

اسلفنا ، فسعة الثقافة وغزارة المعرفة لايمكن بحال من الاحوال ان تغني عن الطبع ، أو توجد الذوق عند من لاذوق عنده » فمن أوتي معرفة ولم يرزق الطبع المبين المقصود فهو عالم ليس له في الأدب مجال« (٢٥) . وقديماً ادرك النقاد العرب هذه الحقيقة فنجد ان ابن الاثير ينبه على ذلك قائلاً : «واعلم ايها الناظر في كتابي ان مدار علم البيان على حكم الذوق السليم ، الذي هو انفع من ذوق التعليم« (٢٦) فتلك امور نظرية تفيد العقل ولكنها لا تكسب الذوق او الطبع مرانة وابتكاراً ، وقد ادرك الجاحظ ايضاً هذه الحقيقة عندما قال : «طلبت علم الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يعرف إلا غريبه ، فرجعت إلى الاخفش فألفيته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على ابي عبيدة فرأيته لا ينقد إلا ما اتصل بالاخبار ، وتعلق بالايام والانساب ، فلم اظفر بما اردت الا عند ادباء الكتاب كالحسن بن وهب (٢٧) . ويعلق الصاحب بن عباد على ذلك قائلاً : «فلله ابو عثمان لقد غاص على سر الشعر ، فاستخرج ما هو ادق من الشعر (٢٨) وقد اكد الصاحب نفسه ما ذهب اليه الجاحظ حين روى انه لا يستطيع نقد الشعر إلا من دُفع في مضايقه ، واما العلماء واللغويون فإنهم يدركون الخطأ والصواب الصحيح والمعتل ، واما البصر بمواضع القبح والجمال ، او مجاوزة استقامة الكلام إلى نقد جودته فليس من عملهم (٢٩) وهكذا فإن تقدير الشعر ليس نشاطاً نقدياً في المقام الأول ، وانما هو نشاط ابداعي (٣٠) وليس الناقد ، كما يقول اناتول فرانس ، قاضياً يصدر الاحكام على العمل وفق خطأ لفظي او استحالة في المعنى ، وإنما هو روح حساسة تفصل مخاطراتها في دنيا الاعمال الفنية العظيمة (٣١) .

**النقد الأدبي بين موضوعية العلم وذاتية الفن**

والنقد يعتمد على القواعد والاصول المقررة ، ولكن هل تصنع هذه العناصر وحدها ناقداً ؟ وهل يصح ان نعد النقد علماً بسبب اعتماده على هذه القواعد والاصول ؟

إن قواعد النقد الأدبي واصوله ليست كافية وحدها لتصنع ناقداً لا يملك قابلية ادبية ، ولا يمكن لها ان توجد الذوق الادبي عند من لا يمتلكه ، فهي قوة تمييز فطرية لا يمكن ان تتحقق بالاكتساب من خلال المدارسة والممارسة ، والاهتداء بالمعايير والقواعد الموضوعة ، فهي التي توجد القواعد والمعايير ، وليس العكس . فلا يوجد ثمة وصف في قائمة او تحليل فني يستطيع ان يحل محل احساس العين امام لوحة فنية او احساس الاذن عند الاستماع إلى قطعة موسيقية ، وهكذا فإننا لن نستطيع تقييم اثر فني دون ان نعرض انفسنا تعريضاً مباشراً لتأثيره (٣٢) ، او ليس هذا ما كان يقصده الآمدي بقوله : «ويبقى ما لم يمكن اخراجه إلى البيان ، ولا إظهاره إلى الاحتجاج ، وهو علة ما لا يعرف الا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة (٣٣) . فالجمال بكل اشكاله ليس اموراً حسية ذات قياسات واطوال يستطاع قياسها بالادوات الحسية ، بل هو قيم معنوية لا تستجلى بغير الاذواق السليمة ، تلك الأذواق التي لا تخضع للقواعد والمقاييس الجامدة كما هو الحال في الامور العلمية ، فلو كان اساس النقد قواعد واصول يكتفي الناقد تعلمها والتدرب عليها لكان حاله حال من يتمرن على السباحة دون ان يلقي بنفسه في اليم (٣٤) .

والنقد من حيث هو فن دراسة النصوص وتمييز الاساليب لا بد له من الاستعانة بضروب من المعارف تكمن ضرورتها في شحذ طبع الناقد وإثراء عقله ، ولكن ليس لاستخدامها في وضع قواعد وقوانين عامة للأدب ، فما وافق من الأدب تلك القوانين كان جيداً ، وما خرج عنها كان رديئاً ، فمثل هذه القواعد والقوانين او ما قد يسمى بـ «علم الأدب» امر ثبت فشله ، لأنه يتعارض مع الاصالة التي تميز اديباً عن اديب ، فالاصالة شيء ذاتي يعسر رده إلى غيره ، فهي مجموعة الخصائص التي تميز روحاً عن روح ، ولم يوجد بعد العلم الذي يستطيع ان يصل إلى ذلك السر الذي يميز روحاً عن روح . او الذي يستطيع ان يعلل لنا التفاوت بين كبار الأدباء ، وإلا فلماذا لم يكن كل شاعر المتنبي او

شكسبير؟فلا المكان ولا الزمان ولا البيئة يمكن ان تفسر لنا التفاوت الكبير بين بيير كورني واخيه توما كورني او بين ابي تمام والبحتري او الفرزدق وجرير (٣٥) .

وحتى مبادىء علم الجمال وعلم النفس وغيرها من القواعد والمقاييس يمكن ان تفتح افاقاً للتفكير ولكنها غير قادرة على ان تبصرنا بجمال موضعي نتوق إلى تبينه في هذا البيت او ذاك(٣٦) ثم ان علم النفس لا يزال غير قادر على سَبْر غور عملية الابداع الفني وفهم شخصية المبدع كما اعترف بذلك بعض كبار علماء النفس (٣٧)؛ وذلك لأن نفوس خالقي الادب نفوس اصيلة ولكل منها سمات ونزعات مختلفة وتطابقها مع غيرها امر اقرب إلى الاستحالة فكيف يصدق تطبيق قوانين علم النفس العامة عليها، التي يشك ابلغ الشك في تطبيقها على العاديين من الناس، وحتى عندما يحدثنا الاديب او الفنان عن نفسه الخاصة ، فإنما يحدثنا عن اسرار فنه هو مما لا يدع مجالاً لتعميمات العلم (٣٨). يقول نعيمة : «والعمل الفني عملية معقدة لأنه عمل نفساني ، وليس حديثنا عن تكوينه ونموه في نفس الفنان ، ثم عن ولادته ، غير ضرب من الرجم بالغيب ، فكيف بتذوقه وتفهمه من قبل الذين لم يجعلوا به ولم يلدوه ؟ انه لأمر يعود في النهاية إلى فطرة المتذوق والمتفهم ، وإلى مزاجه وميله وثقافته ومجمل تركيبه الجسداني والعقلاني والروحاني . لذلك لم يخضع تقدير الفن ولن يخضع لقياسات «علمية» وسيبقى عملية فردية لا تنقاد إلى التصنيف العلمي» (٣٩) . ويستشهد مندور برأي سانت بيف "Sainte Beuev" الذي يؤكد على ان النقد فن، ولا يجوز ان يمارسه غير الفنان: «إن النقد لا يمكن ان يصبح علماً وضعياً ، وسيبقى دائماً فناً دقيقاً في يد من يحاولون استخدامه وإن يكن قد اخذ يستفيد ، واستفاد بالفعل من كل ما انتهى اليه العلم ، او كشف عنه التاريخ من حقائق» (٤٠) . فالنقد الادبي قبل كل شيء يقوم على

تحليل النص ذاته في القراءة الثانية تحليلا متكاملا لنلم بكل ما يتعلق به ، وهي الطريقة التي تخلص لغايتها إخلاصاً يمكنها من البقاء في ميدانها دون التطفل على ميادين اخرى ؛ لأن الناقد الذي يعالج النص المنقود من خلال التحليل النفسي يجوز عده من علماء النفس بقدر ما يعد من نقاد الأدب ، والناقد الذي ينظر إلى النص المنقود من خلال رؤية اجتماعية يسعى من خلالها لاعتبار النص وثيقة تدل على اوضاع اجتماعية معينة يمكن تصنيفه في عداد علماء الاجتماع بقدر ما يصنف ضمن نقاد الأدب ، ولكن الناقد الحقيقي هو الذي يركز كل جهده على تحليل النص الأدبي نفسه (٤١) . فخير له ان يناقش نصاً ادبياً مناقشة مستفيضة ، يقف عند ادق دقائقه من ان يصرف جهده ووقته في تحليل نظريات علم النفس وعلم الجمال التي لن تصل إلى صقل ذوق او تشكيل إدراك أدبي ، فقد يكون من المفيد ان يمزج الناقد الأدبي بين الجانب الذوقي ونتائج الدراسات النفسية ، ولكن مايخشى منه هو ان يغرق الناقد نفسه في مثل هذه النظريات ويسرف في استخدام مصطلحات علم النفس إلى الحد الذي ينسى معه ان تقويم العمل الأدبي فنياً هو من شأن النقد الأدبي ، فيتحول التحليل النفسي الى مناقشات جافة خالية من الجمال ، أقرب ما تكون إلى علم النفس منها إلى الأدب (٤٢) ، والواقع ان علم النفس كما يقول ستانلي هايمن لم يستطع تفسير جمال الاثر الفني ، ولذا فان كل هذه الدراسات المتكئة على علم النفس بقيت نظرية محضة لم تستطع سبر غور النص الأدبي وتبين مافيه من الإبداع او إشراقة الجمال (٤٢) وهكذا فقد ظلت المواجهة المباشرة للنص هي الأساس في تبين جمال الأثر الفني .

ولقد اشتط بعضهم في الدعوة إلى محاولة الأستفادة في دراسة الأدب من الأبحاث والتجارب العلمية داعين إلى ان يكون النقد علماً له معادلاته الخاصة في سبيل إكسابه ثبات المعرفة العلمية وتفادي تأثرية الذوق ، وهنا يقول لانسون واستخدام المعادلات العلمية في اعمالنا بعيد عن ان يزيد من قيمتها العلمية .

هو على العكس ينقص منها إذ ان تلك المعادلات ليست في الحقيقة إلا سراباً باطلا عندما تعبر في دقة حاسمة عن معارف غير دقيقة بطبيعتها .ومن ثـــم تفسدها » (٤٤).ويرى لانسون ان الأصطلاح العلمي حينما يستخدم في الأدب لايلقي غير ضوء كاذب،بل قد يلقي ظلمة :ولذلك فإن ما يجب ان نفكر في اخذه من العلم هو روحه التي تكمن في النزوع نحو المعرفة والأمانة العقليـــة القاسية والصبر الدؤوب ، ويضيف بأننا إذا فكرنا في مناهج العلوم فيجب أن يتجه تفكيرنا نحو اكثرها عموماً من أجل إثارة ضمائرنا اكثر من ان يكـون لبناء معارفنا (٤٥) .

فالخطر في محاولة إخضاع النقد الأدبي لقواعد العلم واساليبه الصرفـــة يكمن في ان العلم يتطور على ارض ممهدة ومن خلال حقائق ثابتة افرزهـــا التمحيص واكدتها التجارب ، اما النقد الأدبي فإنه يتعامل مع العواطف التي لاتتبدل اسسها في النفس الأنسانية والتي لاتحتمل حدية العلم ولاتطيق قسوة التجارب،بل يهدينا فيه الإحساس قبل التفكير المنطقي والبحث العلمي،فنحن إذ نميل الى رأي معين فإننا نميل إليه لأنه يتفق وأذواقنا:ولهذا كان التقديـــر والإعجاب يسبق النقد والتحليل(٤٦)،وبالإضافة الى ذلك فإن الذوق مختلف بأختلاف الأفراد حتى الأكفاء منهم ، متغير بتغير الزمان والمكان وليس هذا من طبيعة العلم ذي القوانين العامة الثابتة الذي لايتأثر بالملاحظات الفردية ولا الزمان أو المكان ، ثم ان عالم الأدب عالم عريض وفنونه كثيرة ، وخواصه البيـانيـة والأسلوبية غير محدودة مما يؤدي الى استحالة إخضاعه لقواعد وقـوانيـــن ثابتة (٤٧) ، وقد اشار سينتسبري Saintsbury إلى انه ليس من الممكن ان يكون النقد الأدبي علماً إلا في حالة استخدام كلمة« علمـــي» في غير معناها الحقيقي : لأن الخواص الجوهرية للأدب والفن ذاتية تستنـد إلى الذوق الخاص مما ينافي طبيعة العلم (٤٨) . وهكذا يبرز أمام جمهـــور الناقدين عسر تطبيق القواعد والمقاييس العامة او الصيغ المشتركة على جميع الأدباء .

## خاتمة

يحاول هذا البحث الأجابة عن السؤال التالي : هل النقد الأدبي فن ام علم ؟ وعلى الرغم من صعوبة الفصل في هذه القضية بسبب اختلاط الحدود ما بين النقد الأدبي والعلم من جهة ، وما بين النقد الأدبي والفن من جهة اخرى توصل هذا البحث إلى ان النقد الأدبي عمل إبداعي كأي نوع من أنواع الفنون الأخرى بالرغم من اشتراكه مع العلم في بعض السمات ، فهو فن قائم بذاته وارتباطه بالفنون الأخرى لايحرمه من ان يكون عملا ابداعياً مثل الشعر والموسيقى وغير ذلك ، وهذا الأرتباط لا يفترق بحال من الأحوال عن ارتباط الفنون بموادها كأرتباط الشعر باللغة ، والرسم بالأصباغ وبالأضافة الى ذلك فإن النقد الأدبي يستند الى ملكة الذوق ، تلك الملكة الفطرية التي لايمكن ان تتحقق بالأكتساب من خلال الدراسة والممارسة . والأهتداء بمقاييس العلم وقواعده الموضوعة . فإذا كان الفنان او الشاعر مبدع الاثر الفني ، فإن الناقد مبدع قيمة هذا الأثر ، فيكون مبدعاً عندما يسبق الى الكشف عن روح جديدة في النص لم يصل إليها ناقد قبله ، حينما تتمكن روحه من النفاذ خلف روح الشاعر فترصدها في كل حركاتها وسكناتها ، وهكذا فإن تقدير الشعر ليس نشاطاً نقدياً في المقام الأول ، وإنما هو نشاط إبداعي ، فلا قيمة مطلقاً للتفريق بين المبدعين والناقدين إلا اذا كانوا من ناقدي الدرجة الثانية .

ومن هنا فإن النقد الأدبي ابداع فني عماده ذوق الناقد وحسه الخاص ، ولايمكن ان يصبح علماً وضعياً ، او ان يخضع لقياسات العلم وقواعده العامة وإن يكن قد استفاد ويستفيد مما ينتهي إليه العلم في بعض الأحيان .

# المراجع


(1) Paul Vallery:"The Course in Poetics:First Lesson:" *In The Creative Process* ed. Brewster Ghiselin, Univ of California Press, 1985, 95–96.

(2) T.S. Eliot: "The Function of Criticism": In *20th Century Criticism*, ed. David Lodge, 1st ed, Longman, London, 1972, 78.

وانظر ايضاً علي أسعد : « النقد والعملية الإبداعية » ، مجلة الآداب ، عدد كانون ثاني ١٩٦١ ، ١٠٧ وما بعدها .

(٣) انظر :

Mathew Arnold: "The Function of Criticism at the Present Time", In *Critical Theory Since Plato*, ed. Hazard Adams, Harcourt Brace Jovanovich, U.S.A., 1971, 583

(٤) انظر في ذلك الجمحي ، محمد بن سلام (ت.٢٣٢ د/ ٨٤٦م) : طبقات فحول الشعراء تحقيق محمود شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ١/٧ : وانظر ايضاً الصاحب إبن عباد ( ت ٣٨٥ د /٩٩٥م) ؛ الكشف عن مساوىء المتنبي – ضمن كتاب العميدي الابانة عن سرقات المتنبي ، تحقيق ابراهيم السوقي ، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٤٤ – ٢٤٥ .

(٥) انظر علي أسعد : « النقد والعملية الأبداعية » ، ١٠٨ – ١٠٩ .

(٦) طه حسين : « مع ادبائنا المعاصرين » مجلة الثقافة ، عدد ١٠ ، ١٩٣٩ ، ٥

(٧) انظر ميخائيل نعيمة : الغربال (المجموعة الكاملة) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٩ م ٣ ، ٣٥١ – ٣٥٢ وانظر ايضاً مناف منصور : « ميخائيل نعيمة ناقداً وأديباً ، عالم الفكر م ٤ ، عدد ٧ ، ١٩٧٩ ، ٢١٧ – ٢٢٠ .

Scott: James, R. A: The Making of Literature, 1st ed, Mercury Books, London, 1939: 375–376.

وانظر ايضاً احمد امين : النقد الادبي ، ط ٤ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ١٩٣ .

(٩) احمد الشايب ، أصول النقد الأدبي ، ط ٨ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ١٦٩ .

(١٠) ميخائيل نعيمة : الغربال ، ٣٥٠ – ٣٥١ : وانظر ايضاً أحمد أمين : النقد الأدبي ، ١٩٣ .

(١١) انظر ميخائيل نعيمة : الغربال ، ٣٥١ : مناف منصور : ميخائيل نعيمة ناقداً واديباً ، ٢١٧ .

(١٢) انظر ميخائيل نعيمة : الغربال : ٣٥٢ – ٣٥٣ .

(١٣) انظر Scott-James, R.A: The Making of Literature, 377

(١٤) الغربال : ٣٥١ .

(١٥) نفسه

(١٦) انظر : Scott James, R.A: The Making of Literature, 380, 385, 387.

(١٧) محسن الموسوي : « الناقد ولادة والنقد عملية إبداعية» مجلة الأقلام ، السنة التاسعة عشرة عدد ٩ ، بغداد ، ١٩٨٤ ، ١٠٧ — ١٠٨ .

(١٨) مناف منصور : ميخائيل نعيمة ناقداً واديباً ، — ٢١٧ — ٢٢٠ .

(١٩) انظر لانسون : « منهج البحث في تأريخ الأداب » ، ترجمة محمد مندور ضمن كتابه : النقد المنهجي عند العرب ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ؟ ٤٠٤

(٢٠) انظر شكري عياد : دائرة الإبداع،دار الياس العصرية ، القاهرة ١٩٨٦ ، ٣٣، ٣٤

(٢١) ابن رشيق ، أبو علي الحسن القيرواني ، (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م) : العمده في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد قرقزان ، ط ١ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ٢٦٢/١ — ٢٦٣ .

(٢٢) نفسه ١/ ٢٦٦ .

(٢٣) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، ( ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) : البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٤ ، دار الفكر ، بيروت ، ، ٩٠/١ .

(٢٤) عبد الواحب عزام : « مكانة الأدب العربي بين اداب الأمم « مجلة الثقافة ، عدد ٢٠٠ ، ١٩٤٢ ، ١٢ .

(٢٥) نفسه .

(٢٦) ابن الأثير : ضياء الدين ( ت ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م ) : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، قدمه وعلق عليه احمد الحوفي وبدوي طبانه ، دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة ، ؟، ١/ ٣٥ .

(٢٧) الصاحب بن عباد : الكشف عن مساوىء المتنبي ، ٢٤٣ — ٢٤٤ .

(٢٨) نفسه : ٢٤٤ .

(٢٩) انظر نفسه : ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٣٠) انظر :

Gurrey, P: The Appreciation of Poetry, London, 1955, 10.

(٣١) انظر :

Spingarn, J.E: "Creative Criticism" 1st ed., 1931.

نقلا عن محمد خلف الله : من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٠ ، ٤١ .

(٣٢) انظر : لانسون : « منهج البحث في تأريخ الأداب « ، ٤٠٢ : وانظر محمد مندور : في الميزان الجديد ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ؟ . ١٥٧

(٣٣) الأمدي ، ابو القاسم الحسن بن بشر ( ت ٣٧٠ هـ / ١٩٨٠م ) : الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري ، تحقيق السيد احمد.صقر ، ط٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ٤١٣/١ .

(٣٤) انظر محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، ط١ ، دار العودة ، بيروت، ١٩٨٢ ، ١٨ .

(٣٥) انظر محمد مندور : في الميزان الجديد ، ١٦٥ — ١٦٦ .

(٣٦) انظر محمد مندور . النقد المنهجي عند العرب ، ٢٧٥ — ٢٧٦ .

(٣٧) انظر :

Freud, S: "Totem & Tabee" in: The Basic Writings of Sigmund Freud, tr.A.A. Brill, New York, 1938, 877.

وانظر ايضاً :

Jung, C.G: Modern Man in Search of a Soul London, 1951, 166.

(٣٨) انظر محمد مندور : في الميزان الجديد ، ١٦٦ .

(٣٩) من رسالة الى رضوان الشهال بتاريخ ١٠ كانون الثاني ١٩٦٢ ، نقلا عن مناف منصور ميخائيل نعيمة ناقداً واديباً ، ٢٣٠ .

(٤٠) محمد مندور : في الأدب والنقد ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ٨٥

(٤١) انظر زكي نجيب محمود ، في فلسفة النقد ، ط١ ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ١٢٢ — ١٢٣ .

(٤٢) انظر محمد مندور ، في الميزان الجديد ، ١٦١ : وماهر فهمي : المذاهب النقدية ، دار قطري بن الفجاءة للنشر والتوزيع ، الدوحة — قطر : ١٩٨٣ ، ١٧١ ، ١٨١ ، ١٩٠ .

(٤٣) ستانلي هايمن : النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، ترجمة إحسان عباس ، ١/ ٢٨٣ : وانظر ايضاً ماهر فهمي : المذاهب النقدية ، ١٩٠ .

(٤٤) لانسون : « منهج البحث في تأريخ الأدب » : ٤٠٦ .

(٤٥) انظر نفسه : ٤٠٦ — ٤٠٨ .

(٤٦) انظر علي ادهم : على هامش الأدب والنقد ، دار الفكر العربي ، ٣ — ٤ .

(٤٧) انظر احمد الشايب : أصول النقد الأدبي ، ١٥٦ — ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٤ .

(٤٨) انظر

Winchester: Principles of Literary Criticism, 27.

نقلا عن احمد الشايب : اصول النقد الأدبي ، ١٦٤ .